الخبرة الجمالية فى ضوء علم النفس الحديث*

بقلم

محمد عماد الدين اسماعيل

مدرس علم النفس — معهد التربية للمعلمين

يؤكد علم النفس اليوم — سواء بشكل ضمنى أم بشكل صريح — فكرتين أساسيتين : الأولى هى النظرة البيولوجية للظواهر النفسية ، والثانية اعتبار السلوك الفطرى للكائن الحى نشاطا كليا غير متميز . أما النظرة البيولوجية فتعتبر الظواهر النفسية عمليات يتحقق عن طريقها التكيف بين الكائن الحى والبيئة التى يعيش فيها . وبعبارة أخرى أن الحياة النفسية للكائن الحى هى عبارة عن مجموع السلوك المتخصص الذى يقوم به حتى يضمن لنفسه الحياة والبقاء — وأما النظرة الجديدة للسلوك الأولى فتعتبر أن السلوك المتخصص الذى يقوم به الكائن الحى إنما يبرز ويظهر تدريجا ، عن طريق التميز والتخصص ، من كتلة غير متميزة من النشاط الطبيعى — وقد كانت النظرة القديمة ، على العكس ، تعتبر أن النمو يحدث نتيجة لتركيب عناصر متميزة أصلا من السلوك والخبرة فى وحدات أكبر . وهاتان النظرتان ، التكيفية والكلية للظواهر النفسية ، تكمل كل منهما الأخرى ، مما يزيد فى تدعيمها . ذلك أن الأفعال كلما زاد تميزها عند الكتلة غير المتميزة من السلوك الفطرى زاد أثرها فى العمل على التكيف باعتبارها استجابات محددة لمواقف خاصة .

والغرض من هذا المقال هو أن نعرض رأيا فى الخبرة الجمالية يتفق وهذا الرأى فى طبيعة النشاط الإنسانى وتطوره ، ولا يختلف فى الوقت نفسه مع النظريات الجمالية فى الفلسفة . وعلى ذلك فسوف نبين أولا كيف يفسر علم النفس الحديث الخبرة العادية ثم نوضح بعد ذلك مكان الخبرة الجمالية من هذه الصورة التى

(*) عن كتاب Twentieth Century Psychology: Edited by D. L. Harriman. The Philosophical Library, New York.

سنرسمها للخبرة العادية . وأخيراً نقارن النتائج التى سنخرج بها بالنظريات الفلسفية فى الجمال .

يقرر علم النفس الحديث أن كل خبرة هى عبارة عن عملية تنظيم تتناول الآثار الحسية . وتكتسب بعض الخبرات نتيجة لتكامل هذه الآثار ، والبعض الآخر نتيجة لتآزرها . وعلى ذلك فسماع نغمة موسيقية أو شم رائحة أو تذوق طعم ، هى خبرات ناتجة عن تكامل عناصر حسية معينة حيث يفقد كل عنصر ذاتيته فى الكل ، ولا يمكن فصله إلا عن طريق توجيه الانتباه إليه توجيها مباشرا . فى حين أن رؤية شجرة أو صورة أو وجه ، هى خبرات تحدث نتيجة عملية تآزر يحتفظ فيها كل جزء من الكل بذاتيته ، إلا أنها جميعا تؤثر فينا تأثيراً واحدا ، هو أنها تنتمى إلى بعضها البعض . والخبرات ، أيا كانت ، تبدأ غامضة . ولذلك فإنها تكون غير متميزة إحداها عن الأخرى ، ثم لا يلبث أن يحل محل هذا الغموض والإبهام ، بالتدريج ، التحديد والتميز ، الذى يزداد كلما اتضحت التفاصيل وظهرت العناصر شيئا فشيئا . فمعنى الشىء لا يتضح إلا إذا اتضحت عناصره ومكوناته مهما يكن ذلك الشىء . وعلى ذلك فكلما زاد بروز الأجزاء المكونة للكل وتميزت ، أصبح الكل نفسه أكثر تميزا وتحددا . وعلى العكس كلما انحسرت العناصر فى عدة كليات حتى قاربت الأرضية ، صعب تميز هذه الكليات عن بعضها البعض . وعلى ذلك فالعملية الأولى فى نشوء أى خبرة هى عملية تميز كليات عن طريق اتضاح عناصرها .

ويصاحب عملية التميز هذه عملية أخرى هى عملية التفسير ، أى العملية التى تسبغ على الخبرة معنى معينا . فكلما تحددت الخبرة عن طريق التميز ، اكتسبت معنى عن طريق التفسير . ذلك أن الحياة ترغمنا على العمل حتى نتكيف معها ، ولكن إذا كان الموقف غامضاً فإن السلوك الذى يثيره هذا الموقف يظل أيضاً غير محدد . وبذلك لا يتم التكيف إلا إذا تحدد الموقف فأصبح مفتاحا أو إشارة لفعل محدد . فالأفعال المحددة وحدها هى التى يتم التكيف عن طريقها . وبذلك يكون معنى الموقف هو السلوك الذى يثيره . ويتناسب تحدد السلوك تناسبا طرديا مع مقدار تحدد المثير . فإذا ما وصلت الخبرة إلى مرحلة التفسير أصبحت بذلك خبرة كاملة ، إذ معنى ذلك أن تكون قد أدت الوظيفة البيولوجية المنتظرة منها ، وهى وظيفة التكيف ، ولا يرجى منها أكثر من ذلك — هذه هى قصة الخبرة

يعرضها لنا علم النفس . فالحياة تتحقق وتشبع حاجاتها عن طريق البيئة . والكائن الحى يتعلم كيف يعرف هذه البيئة عن طريق مرحلتى التمييز والتفسير . وبعبارة أخرى فإن الكائن الحى يستطيع أن يحقق الاتزان بين نفسه وبين موقف معين إذا كان ذلك الموقف متميزا عن غيره من المواقف مما يجعله مثيرا لاستجابة ملائمة .

فأين إذن مكان الخبرة الجمالية فى هذه الصورة ؟ طبيعى أن الخبرة الجمالية لا يمكن أن تنشأ من الخبرة العادية إلا إذا حدث تغيير ما فى هذه الأخيرة — ولا يخرج التعديل الذى يمكن أن يحدث فى الخبرة العادية عن أن يكون أحد اثنين : فإما أن يكون ذلك بإضافة شىء إليها أو بحذف شىء منها . ولكن الشىء الوحيد الذى يمكن إضافته إلى الخبرة العادية لا بد وأن يكون شيئا من ذاتها ، أى مزيدا من التمييز والتفسير . وهذا يجعلها عادية أكثر . وعلى ذلك لا يبقى إلا أن نفترض أن الخبرة الجمالية تنشأ عن الخبرة العادية بعد أن يحذف منها ما يجعلها عادية .

ولا يمكن أن تكون صفة العادية فى الخبرة نتيجة لعملية التمييز إذ بدون تمييز لا يمكن أن تكون هناك خبرة سوى الغموض والإبهام . أما ما يجعل الخبرة مفيدة ومحققة للتكيف ، ويصبغها بالصبغة العادية ، فهى ثمرة عملية التفسير ، أى المعنى الذى تكتسبه باعتبارها استجابة محددة لموقف محدد . إذ أن نتيجة عملية التمييز كما قلنا هو أن تصبح الخبرة علامة لفعل ، أى وسيلة لغاية هى الفعل الذى يشبع حاجة عضوية للكائن الحى . فعالم الظواهر الموضوعية ، بالنسبة للخبرة العادية ، ما هو إلا مخزن مملوء بالبطاقات ، تحمل كل منها إشارة لهذا الفعل أو ذاك من الأفعال التى تؤدى إلى خدمة الوجود البيولوجى . وعلى ذلك فلابد وأن تكون نشأة الخبرة الجمالية عن طريق فعل تخيلى تتجرد فيه الخبرة مما تفرضه عليها الضرورة البيولوجية فى عملية التفسير فلا يبقى سوى عالم التمييز أو عالم الأشكال . وإذن فالخبرة الجمالية عبارة عن خبرة بالشكل له معنى باعتباره شكلا فقط ، إنها المعنى المستمد من جوهر التكوين لا من خارجه — وبمعنى آخر فإن الخبرة الجمالية هى جوهر الخبرة مجردا — فى الخيال — من كل عرض . إنها الحالة التى تكون فيها الخبرة ذاتها وليست نتيجتها ، هى الغرض . إن الحالة الجمالية هى حالة التلاشى فى موضوع الخبرة ، على عكس الخبرة العادية حيث يكون الاهتمام مركزا فى البحث عن إشباع ما عن طريق موضوع الخبرة . والعملى والجمالى هما النوعان الوحيدان للخبرة ، وإن وجود أحدهما لينفى وجود الآخر . أحدهما

تتخذ فيه الحياة معنى الصيرورة أما الآخر فتتخذ فيه الحياة معنى الكينونة . أحدهما يبحث عن الحياة أما الآخر فإنه يعيش بالفعل . أحدهما يجاهد فيه كل من التفكير والانفعال فى سبيل الوصول إلى غرض ، أما فى الآخر فإنهما يجدان الراحة بالفعل إذ لا حاجة بهما لغرض آخر خارج عن الخبرة ذاتها .

من هذا التعارض بين العملى والجمالى تتضح الوظيفة التكيفية للجمالى ظاهرةً بارزةً . فبينما يؤدى بنا العملى إلى التكيف مع البيئة جاعلا بذلك الحياة ممكنة ، نجد أن الجمالى يؤدى بنا إلى التكيف مع العملى جاعلا بذلك الحياة محتملة — وعلى ذلك يمكن أن يقال إن للجمالى وظيفة بيولوجية إذ أن الحياة الإنسانية مليئة بالشواهد على وجود رغبة ملحة فى الراحة من الحياة باعتبارها صيرورة مستمرة .

ولا بد أن تكون هناك درجة عظيمة من الحساسية بازاء مادة الخبرة كشرط لحدوث الاستجابة الجمالية . فإذا لم يكن جوهر الخبرة حيا بالنسبة للشخص لدرجة تجعل للخبرة معنى فى ذاتها ، فإنها لابد وأن تلتمس معناها من الخارج ، كالشخص إذا لم يكن لديه من الأمور الخاصة به ما يشغل به تفكيره فإنه سيشغله بأمور الآخرين ، إذا كان لابد وأن يفكر فى شىء ما . فإذا كانت العبقرية شرطا أساسيا لإخراج الإرادة إلى حيز الوجود . فإن الإحساس بما هو عبقرى لابد وأن يكون « طريقا متسعا تتزاحم فيه جيوش الآثار لتغزو قلعة العقل » وقد دلت التجارب على أن الاستجابة الجمالية للموسيقى وظيفة لدرجة من الحساسية إزاء النغم نفسه أى المادة المحسوسة فى الموسيقى . بمعنى أن الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يجدوا فى القطعة الموسيقية أى معنى باعتبارها تكوينا له قيمة موضوعية ، يلتمسون ذلك المعنى فى الصور الذهنية التى تستثيرها . ويمكن أن نقول بعبارات سيكلوجية إن درجة الحساسية للتفاصيل فى كل منظم هى التى تحدد الدرجة التى يبرز بها معنى ذلك الكل باعتباره شكلا ، وأنه إذا ما كانت درجة الحساسية غير كافية لأن تدرك فيه أى معنى ، فإن المعنى يلتمس خارج الشىء المعروض مباشرة . فإذا كان الشىء المعروض غامضا فى ذاته فإنه يمكن أن يتحد عن طريق شىء آخر خارج عنه .

وتفسير الخبرة الجمالية على أنها جوهر الخبرة مجردا من غرضها ، أو معنى الشكل باعتباره شكلا ، يتفق مع ما يتضمنه استعمال كلمتى « جميل » و« فنى »

فى اللغة العادية — فكلمة جميل تستخدم عادة لتدل ، خارج مجال الفنون ، على قيمة فريدة يمتاز بها الشىء الموصوف . فنقول مثلا فكرة جميلة أو فعلا جميلا أو حركة جميلة أو صداقة جميلة أو غير ذلك . فما معنى الجمال فى هذه التركيبات ، وما الفرق بين فكرة جميلة وفكرة طيبة . إن الفكرة تكون طيبة لأنها تكون نافعة — فالقيمة هنا مستمدة من شىء آخر خارج عن الفكرة ذاتها . كذلك يمكن أن يقال عن الفكرة الصحيحة . فهى صحيحة لاعتبارات خارجة عنها . أما الفكرة الجميلة فهى جميلة لذاتها ، أى أن لها قيمة ذاتية ، أى لها قيمة باعتبارها شكلا . كذلك الفعل الطيب ، فهو طيب لأنه يؤدى وظيفة . فى حين أن الفعل الجميل جميل لذاته ، أى باعتباره شكلا ، وهكذا .

كذلك لفظ فن وفنى يتعلق بالشكل . فأى انتاج لا يمكن أن يقال عنه إنه فن لأنه يمثل نوعا معينا من الأشياء . فإذا كانت هناك صورة فنية فهى ليست كذلك لأنها تمثل حقلا أو شجرة أو شخصا . كذلك القصة لا تعتبر فنية لأنها تمثل مواقف إنسانية معينة . بل إن الصورة تعتبر فنية والقصة فنية والقصيدة فنية لأن الأسلوب الذى صيغت فيه كل منها أو الشكل الذى رسمت به — وليست المادة التى صنعت فيها — هو الذى أضفى عليها هذه الصفة — فالأفكار قد تكون تافهة أو فاسدة ومع ذلك لا يؤثر هذا فى الكتابة من الوجهة الفنية .

ويدعم هذا الرأى فى الخبرة الجمالية النظريات الفلسفية التى قيلت فى تفسير الجمال . وأقدم هذه النظريات ، النظرية المعروفة ، بنظرية التطهير أو التنفيس . فقد قرر أرسطو فى كتابه « الشعر » أن سر إعجابنا بالمأساة هو أنها تطهر نفوسنا من انفعالات الشفقة والخوف . وكذلك فإنه يعزو مثل هذا التأثير إلى الموسيقى فى كتابه « السياسة » . ورغم أن أرسطو لا يشرح بصراحة طبيعة ذلك التطهير أو التنفيس فى أى كتاب من كتبه ، فإننا نستطيع أن نستنتج ما يقصده من تعريفه للخوف فى كتابه « الخطابة » إذ يقول : « إنه ألم أو اضطراب خاص ينشأ عن الإحساس بشر محدق ، وهو إحساس بطبيعته مؤلم وهدام » . وواضح من هذا التعريف أن التطهير من الخوف هو عبارة عن التخلص من ذلك « الإحساس بالشر المحدق » . فلا يصبح الخوف فى هذه الحالة انفعالا شخصيا مرتبطا بحادث معين بقدر ما يصبح انفعالا مجردا مرتبطا بسير الحوادث العام ، الذى يصور لنا مصير الإنسان . وبعبارة أخرى يتجرد الانفعال فى خيالنا من متضمناته البيولوجية

ويصبح خبرة فى ذاتها أو خبرة خالصة . وفى مثل هذه الحالة ينتفى أيضا القلق أو التوتر الذى يدفع للفعل ، وهو الصفة المميزة للانفعال اليومى . وينتج عن ذلك حالة ارتياح من عناء التوتر . فالجمال يشعرنا بالارتياح عن طريق التنفيس أو التطهير .

وتقرر النظرية التى قال بها (بلو[١]) وهى نظرية البعد النفسى [٢] ، نفس الشىء تقريبا بعبارات مختلفة . فهو يقول إن الشخص إذا بعد عن ذاته نفسيا وهو واقف على حافة تل والبرق يبرق من حوله فإنه يصبح فى حالة ارتياح لأنه يكون مشغولا فى الظاهرة نفسها أكثر من انشغاله فى التفكير فى الخطر الذى يمكن أن يلحق به . والبعد النفسى ما هو إلا مرادف آخر للتطهير أو التنفيس ولا يزيد عنه إلا فى أنه يشرح فقط كيف تحدث هذه العملية أى عملية التطهير .

وإن هذه الحالة من الارتياح الجمالى الناتج عن التطهير عن طريق البعد النفسى هى التى تجعلنا نصف الخبرة الجمالية بعبارات صوفية فنقول إنها لحظة الكمال أو الخلود أو التلاشى أو الاتصال بالحقيقة المطلقة أو غير ذلك من الصفات . ذلك أن حالة الارتياح الجمالى ، بما أنها حالة تتعادل فيها جميع القوى تعادلا تاما ، لذلك فإنها تكون بالفعل لحظة كمال خالية من كل توتر أو نضال . ولذلك أيضا فإنها تكون لحظة خلود إذ أن الوعى بالزمان والمكان من ظواهر إرادة الحياة ، وإرادة الحياة وحدها هى التى تخلق الوعى بالذات . كذلك فإن الحالة التى تنتفى فيها الإرادة وتتلاشى فيها الذات ، كما أنها حالة كمال وخلود ، فإنها تعرض حقيقة مطلقة إذ أن الخبرة لا يمكن أن تصل إلى ما وراء ذلك .

والخلاصة أن كل ميزة للخبرة الجمالية انما ترجع إلى كونها خبرة بالشكل . وينتج هذا عن تجريد الخبرة من ثوبها العملى ، أو بعبارات سيكلوجية تخليص الخبرة مما تضيفه إليها عملية التفسير بحيث لا يبقى للتأمل سوى ثمرة عملية التمييز ، وهى عالم الوجود الخالص . أى عالم الأشكال . فالخبرة الجمالية إذن فى رأى علم النفس هى الخبرة بالشكل المنظم الذى اكتسب معنى من حيث هو شكل اتضحت فيه جميع التفاصيل .

محمد عماد الدين اسماعيل

---

(1) Edward Bullough
(2) Psychical distance